المسلمون .. وتحمُّل التبعة (*)

أن يندب نفر آمنوا بربهم أنفسهم للدعوة إلى الله على بصيرة، والعمل بإيمان ووعي على أن تأخذ مفهومات الإسلام طريقها الطبيعي في المجتمع، لا يعني أن الآخرين قد أعفوا من المسؤولية بين يدي الله تبارك وتعالى، كما لا يعني - وهذه أهم - أن مسؤولية هذا الدين أصبحت مقتصرة على أولئك الذين ندبوا أنفسهم للعمل. . وأن كل قضية ترتبط بالإسلام بسبب: فإنما يكون نسبها الحقيقي إلى هؤلاء، وينتج عن ذلك أن يتحملوا المغارم كل المغارم.

أما الآخرون: فلا أدّوا واجب الأمانة وفاء بعهد «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ولا حموا ظهور هؤلاء على الأقل، مما يثقل الكواهل من الفتنة، والمثبطات والمعوقات. فإن جاء نصر من الله صار الكل مدعين. . وإذا الفتنة جاءت - وما أكثر ما تجيء - فلتكن على أم رأس أولئك العاملين. . وإن كان عزاء هؤلاء دائماً أن الابتلاء يريدهم إلى مرضاة ربهم، وأن ما يتطلع له المؤمنون لا يكون دون ابتلاء وتمحيص.

نقول هذا دون غفلة عن المؤهلات الحقيقية التي يجب أن تتوافر لمن يكرمهم الله بحمل العبء وارتياد الطريق. . فبقدر عظم الغاية: تتبدى ضرورة صلاحية العاملين من أجلها. . ولم يكن في الماضي، ولن يكون في

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان الرابع والخامس، السنة التاسعة عشرة، جمادى الآخرة ورجب ١٣٩٨هـ، أيار وحزيران ١٩٧٨م.

الحاضر أو المستقبل، تبديل لسنة الله في هذا الكون، بأن تناط الغايات الكبار، بمن حظُّهم من العمل لهاث وراء الدنيا واستخذاء على أعتاب الانحراف والمنحرفين. وإنما تناط دائماً بمن يكونون أحقَّ بها وأهلها.

إن الذي نقول لا يعني ذلك، ولكن يعني ضرورة التدبر في أمر عموم خطاب التكليف، وأن الإسلام أمانة في أعناق الجميع، وكلٌّ مطالب بالعمل قدر ما أعطاه الله من المؤهل والكفاءة: [**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**]. ولن يعفي مسلماً من المسؤولية دعواه ألاّ علاقة له بكذا، وأن الأمر يهم من ندبوا أنفسهم لهذا الأمر، أما هو: فحسبه أنه عن الأذى بمنجاة، وأن دنياه لا يطولها ما يعكر الصفو. فمثَل الإسلام في خيريته المطلقة للفرد والمجتمع والأمة: كمثَل هذا الغيث العميم ينبت الله به الزرع والضرع، ومثلِ تلك الشمس الطالعة تبعث الحياة والدفء والنماء، يظهر ذلك في النفس والولد والمال وكل ألوان الوجود. . فإذا انحسر ظلُّ الإسلام عن المجتمع: كان ذلك نذير الضياع وسوء العاقبة.

فالحقيقة أن المسلم يكون بخير: إذا نعم الناس بشريعة الله، وكانت هي المحكَّمة في شؤونهم. . يكون بخير هو وأهله وذووه: إذا عرفت الأمة طريقها ووجهت للذي فطر السماوات والأرض وجهها، وكانت في التربية والعمل والإعداد على النهج الرباني الذي رضيه لها ربنا جل وعز، والمحجة التي تركها عليها نبيها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأين من ذلك. . تلك الانطوائية المتخاذلة عن الإسهام في رفع راية الإسلام مجدداً. . بينما يسهر أعداء الله ليلهم في الفتك بهذه الأمة وفتنتها عن دينها على كل صعيد.

إن سلاحاً من أمضى الأسلحة بيد أعداء الإسلام: يتمثل في هذا الفهم الأبله المسترخي لطبيعة المسؤولية في الإسلام، وأن المسلم يكفيه من دعوى الإسلام، ما هو عليه من سلوك خاص لا ترافقه حرقة على دين الله أن ينحسر عن المجتمع، ولا شعور جماعي يتمثل في تحسُّسه بما يثقل كاهل الأمة من واقع أليم جرها إليه إدبارها عن الحق. وتولية ظهرها للراية التي في ظلها نبت الخير واستعلنت كلمة التوحيد، ووُجد الإنسان كما أراد له ربه تبارك وتعالى.. وليس الرقمَ الجامد، الذي لا يستطيع حراكاً، ولا يؤذنُ له فيعمل إنسانيته في ظل قول الله تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

ويسوقنا الحديث إلى الهمس في آذان من يرون تحميل مسؤولية هذا الدين كيما يعود له وجوده الحقيقي: فئةً خاصة من المسلمين آمنت بالإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً وجهاداً، وأن العمل لابد أن يكون قرين الإيمان، بل وأنه برهان الإيمان الصادق.. يسوقنا الحديث إلى أن نهمس في آذان هؤلاء: أن الله الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم أن صنيعهم هروب من التبعة التي تتطلب التضحية والبذل، وانحراف عن حق لا إله إلا الله، فمن حقها أن تحكم الأمة بما أنزل الله، ومن حقها الوفاء بعهدها؛ لأن من آمن بالله رباً فقد أعطى العهد من نفسه أن يؤمن به سبحانه شارعاً لما خلق، فكما قدر على خلق الكون وترتيبه على أدق نظام، فهو القادر على أن يشرع للإنسان الذي سخر له الكون ما يسعده في الدنيا والآخرة ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. فالإدبار عن ميدان العمل تحت ستار هذا الفهم شح عن

العطاء، وفرار من ميادين العمل، ورضى بالقعود، حيث لا يرضى المؤمنون بالقعود.

ولست في هذا الذي أقول داعياً إلى الفوضى.. وأن يهرف كل إنسان بما لا يعرف، وأن يقول في دين الله من لا يعلم من الدين إلا اسمه ومن الشرع إلا رسمه، فتلك قضية آخرى، ولكنني أدعو إلى وجوب أن تنتهي من حياة المسلمين هذه التعللات، والتحملات التي تحمل في طياتها طلب العافية من العمل والبذل، والفرار من ساحات الجهاد وبذل الطاقة على أن يكون الإسلام هو محور حياة هذه الأمة الماجدة.. بحيث تكون قيمه هي المنارات التي يهتدي على ضوئها السالكون.. فتستيقظ الأمة من رقاد.. وتتنبه من غفلة.. وتمسك بالزمام الذي أفلتته فضاعت وأضاعت.

التخصص العلمي شيء، والشعور بالواجب في طابعه العام شيء آخر.. إن واحداً من خطابات التكليف في القرآن سواء أكان في العبادة الخاصة، أو العمل أو الجهاد لم يكن لفئة معينة من الناس، ولكن الأمة مأمورة ـ على وجه العموم، رجالاً ونساءً ـ أن تهيئ لكل عمل ما يناسبه ويسلمه إلى النجاح فترى: يا أيها الذين آمنوا.. يا أيها الذي آمنوا.. وهذا تذكير بالإيمان الذي هو قاعدة العمل. فالدعوة إلى العمل مرتبطة بالإيمان، وليس بشخص أو بفئة من الناس.. ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾. ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾. ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾.

وإذا كانت السهام تنوش المسلمين من كل جانب، وتُحشدُ لفتنهم عن دينهم وإغراقهم في حمأة الأذى ألوانٌ وأنواع من المظالم الطاقات، ويستخدم لذلك صنوف من الأذى والتخصصات، إن الضرورة تدعو إلى أن تحشد في مقابل ذلك كل الطاقات والتخصصات دون أي خسارة نخسرها على طريق التغيير ومدافعة الفتنة، عندما يثني كل عقله ويبتدع التعللات هروباً من العمل وانصرافاً عن جدية التفكير في واقع الأمة.

إنها - وايم الله - كارثة أي كارثة.. أن يعمل أعداؤنا كل سلاح في كيان لهذه الأمة ليسلموها إلى وجود هو بالعدم أشبه، ثم يكون في مقابل ذلك الاستهتار المغلف من جانبنا، وحب العافية الذي يأخذ زوراً وبهتاناً عناوين تعداد الواجبات ما هي؟ ومن هم أصحابها؟ ويلحق بذلك الموضوعية والحكمة.. وكذا.. وكيت.. من ترهاتٍ ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما هي أسماء سماها المنهزمون فينا، أو الذين استنوا بسنة من طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم تمويهاً على ما هم فيه من حال قال القرآن فيها: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

ترى.. أليس من عظائم الأمور التي تستدعي بالغ التفكير وأعمقه، أن تنحسر الحرقة عن قلوب وفرة من المسلمين، فلا يرفع الواحد منهم لما يحل بالمسلمين في كثير من أصقاع العالم رأساً، ويزوح ويغدو في دنياه وكأن بنيان الأمة لا يريد أن ينقض ويتهدم؟ ما هي أسباب ذلك وما علاجه؟ ليس في مقدور الكلمة على الساحة المحدودة من الورق هنا أن تجيب عن هذا

وعندها يمكن أن نطمئن إلى أن شرارة حضارية يمكن أن تضيء الطريق مجدداً نتيجة التحدي والاحتكاك. . وتسعد الأمة بتطهير كيانها من مستنقعات التجزئة في الفهم، وما يكون من مبتدعات يمليها حب العافية وما اختزنه اللاشعور من رغبة في العافية وهروب من البذل والعطاء.

وعلى هذا الصعيد المبارك الإيجابي: نذكر ما حمل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمانة الجماعة والنظرة الجماعية عبر التاريخ، من أن المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وأن المسلمين كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

وفي ضوء هذا المنطلق: نقف بكثير من الإجلال والتبصر أمام الذي فرضه رسول الله من عقوبة المقاطعة على أولئك البررة الثلاثة الذين تخلفوا عن (تبوك). فالمجتمع كله بلا استثناء يقاطع الثلاثة، لماذا؟ لأن القضية قضية الجماعة بأكملها، وليست مسؤولية على صعيد الاختيار. تخلفوا بلا عذر عن معركة قاسية محتملة مع العدو في الصيف الصائف، فكان أن علَّم رسول الله الأمة أن التخلف تخلف على طريق الأمة فليشترك المجتمع كله في تلك المقاطعة. . وظل ذلك حتى نزلت الآيات الكريمة تقبل توبتهم. . ﴿**وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ**﴾.

وهكذا تفرض العقيدة، ويفرض الواقع التاريخي، وتفرض الحال التي تدمي القلب وتحرق الأكباد، أن يذكَّر الرواد بعمق المسؤولية وأبعادها، وأن

تغيير واقع الأمة إلى ما هو خير أو أقل سوءاً على الأقل مرهون بأمور كثيرة ـ بعد عون الله وتأييده ـ ليس أقلها الشعور الجماعي بالتبعة، وأن الأمر ليس مقتصراً على من يندبُون أنفسهم لهذا الأمر، وإن كنا نغبط العاملين ثم نغبطهم لما أن سبيلهم عنوان مرضاة الله..

ويا حبذا ثم يا حبذا ما يدركه الواعون من أبناء الأمة وينشدونه في الناس من وجوب فهم الإسلام على حقيقته، ثم وضع التخصصات والطاقات على طريق التغيير، تلك الطريق التي لابد أن تسلمنا إلى حسن العاقبة، أن لو أخلصنا النية في القول والعمل وصدقنا في التوجه إلى الله.. وتباشير النصر تبدأ بإعداد العدة وخلوص النية، ويا قبّح الله كل أولئك الذين يحولون دون الأمة ودون أن يسلك أبناؤها تلك الطريق.. ولكلٍّ وقفة لا تخفى معالمها يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

وهنيئاً للمجاهدين الصادقين الصابرين ثباتهم على الحق، واحتمالهم صنوف الأذى، وابتسامتهم للموت يقع عليهم أو يقعون عليه.. ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا، والعاقبة للمتقين.. ومن يتوكل على الله فهو حسبه، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

شهر الصبر والجهاد (*)

لقد اقتضت إرادة الله أن يكون شهرُ رمضان ـ وصيامُه ركن من أركان الإسلام ـ شهرَ الجهاد والصبر، وأن يتحقق فيه على مر الزمن كثير من انتصار الحق على الباطل في عدد من المعارك التي هي مشهورة مذكورة في التاريخ، ومن عيونها بدر والفتح وعين جالوت وغيرها.

ولقد كان ينبغي على المسلمين الذين كان حظهم من هذه المعارك قراءة أخبارها أن يستذكروا ـ مع فرحهم بنصر الله وإعزاز جنده ـ عوامل هذا النصر وكيف تأذّن به ربنا، وفي الوقت الذي لا تبدو الأسباب الظاهرة أحياناً على المستوى الذي يوحي للناقد البصير بالنصر.

لقد خرج المسلمون من مكة إلى المدينة بعد ثلاثة عشر عاماً من الابتلاء والتمحيص، حيث زكّيت النفوس، وأحسنت الصلة بالله تبارك وتعالى، واستنارت القلوب بنور الإيمان الصادق الذي لا يتزعزع، واليقين بوعده عباده أحباءه بالنصر إن هم نصروه. ولقد كان صبرهم ومصابرتهم واحتمالهم صنوف الأذى في مكة، ثم هجرتهم بدينهم، مخلفين الأهل والمال والوطن، عنواناً واضحاً مشرقاً على أن رسالة السماء قد عملت عملها في تلك النفوس، وأن صياغة جديدة للإنسان على أرض الجزيرة العربية قد خرجت بهذا الإنسان من حال إلى حال، فارتفعت به عن أوضار

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد السادس، السنة التاسعة عشرة، شعبان ١٣٩٨هـ، آب ١٩٧٨م.

المادة والتراب وحطام الدنيا، وكل ما يعوق عن السير إلى الله؛ من وثنية وخرافة وجهل وتعاظم بالآباء والأجداد.

كما وضعته على مستوى الرسالة التي حملها، فكان من المجاهدين البررة الذين كل مبتغى الواحد منهم أن يلقى الله وهو عنه راض، وأن يكتب بدمه تاريخ أمة لا تنحني لصنم ولا تذل لمخلوق، ولا يكون همها إلا تحقيق كلمة الله في الأرض، وإبعاد شبح الطاغوت من وثنية، وظلم، وجاهلية، وخرافة من طريق الإنسان، بل من حياة الإنسان. وعماد ذلك كله إقامة حياة إسلامية وفق ما أوحى الله به إلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقام هو ـ بأمانة ـ بتبليغه وبيانه للناس.

وإذا كانت هذه الأمور معروفة لدى المسلمين فيما تنطق به تراجم أولئك الرجال الذين صاغهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المنهج الرباني: فإن الضرورة ملحة اليوم ـ وكل يوم ـ أن نستذكر ذلك بمضموناته ومدلولاته ومقتضياته، خصوصاً أن المسلمين على أبواب واجبات ملحة تقتضيها طبيعة الصراع بين الحق والباطل، وإن شئت فقل: بين الإسلام والكفر. وسنة الله ماضية في هذا الكون أن الإعداد يبدأ من داخل النفس، وأن المجاهدين المخلصين إذا سلمت لهم هذه المقدمة، واتخذوا من العدة الظاهرة ما يستطيعون، لا بد أن يأتيهم نصر الله، والآيات في هذا واضحة صريحة لا تحتاج إلى بيان، اقرؤوا إن شئتم قول الله تعالى: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾. لقد اقترنت غلبة الفئة القليلة بالإذن من

الله، وأنه سبحانه مع الصابرين. فأي سلاح أمضى من هذا السلاح؟ وأي عون يمكن أن يكون أغزر وأوفر من هذا العون؟. ولقد رأينا الفئة المؤمنة الصابرة على قلتها وضعفها، لم تقصر في اتخاذ ما تستطيع من العدة، وفي القلوب يقين، وفي النفوس صدق يتطلع لما عند الله، فجاء النصر والحمد لله، وفرح المؤمنون بنصر الله.

إن هذا الذي نلح عليه في وقت يشتد فيه الكرب، وتلاحق المسلمين الفتنة في كل مكان على الأرض من أقصاها إلى أقصاها.. بدءاً من عند أنفسنا، ولكنه دلالات الوقائع التي زانت التاريخ في وضع يتسق مع سنن الله الماضية في هذا الكون.

وما لم يصحُ المسلمون صحوتهم المبصرة الواعية، فتكون الدعاوى عنواناً على مضمونات وأعمال، وإعلان «لا إله إلا الله» إيذاناً بصدق العهد مع الله. فستظل نذر الشر المستطير قائمة تصرخ فيهم من هنا وهناك.

إن الذي حوّل الشراع في معركة عين جالوت، وبدّل الأمر من حال إلى حال، أن المسلمين على تفرق قيادتهم في العالم الإسلامي خاضوا المعركة بروح الإسلام، حيث قادهم العالِم العامل، والقائد المظفر من قلوبهم أولاً وقبل كل شيء، حتى أضاءت جذوة الإيمان من جديد، واشتدت العزائم، وتحركت النخوة الإسلامية، وآتى تحدي الأعداء ثمراته في النفوس، ووقع التفجر وكانت شرارة التحول التي غسلت العار وحمت الذمار.

لقد كانت معركة عين جالوت في كل دلالاتها والمنعطف الذي أحدثته في

تاريخ الإسلام أوضح دليل على أن المسلمين إذا صدقوا في إعطاء الكلمات والمصطلحات مدلولاتها، ولم تكن فارغة من ذلك كما هو شأنهم اليوم فلا بد أن تكون العاقبة لهم بإذن الله مهما تكالب عليهم شياطين الإنس والجن، وقامت في وجوههم العقبات.

وقد تكون المهمة اليوم أثقل وأثقل بما طرأ على المسلمين من تبدل في طريقة التفكير عند أكثرهم - تلك الفاجعة التي لم يصب بها أولئك المجاهدون - ومن ضياع كثير من القيم لم يفقدها أولئك العاملون. هذا.. إلى جانب منعطفات جديدة من التمزق والضياع وسلطان يهود ومن هم من أعوانهم على اختلاف العناوين واللافتات.

ولكن مع وضع هذا كله في الحسبان: يظل وعد الله قائماً بنصر عباده المؤمنين إن هم نصروه، وتظل النتائج كلها مرتبطة بمقدمات نملك أن نفعل ما نستطيع منها، وعندها يواتينا النصر بإذن الله، وتدرك الأمة عناية من لا رب غيره ولا خير إلا خيره.

إنه - ومن خلال كل المعوقات - لابد أن يُعَدَّ المسلم في قلبه وعقله ومشاعره وطريقة تفكيره وصلته بمولاه عز وجل إعداداً يرتفع به إلى مستوى القضية، إيماناً وإخلاصاً ورغبة صادقة في الجهاد.. وقبل ذلك وبعده.. استشعاراً صادقاً لمدلول «لا إله إلا الله»، وأنها عهد مع الله، وأن معنى إعلانها: العمل بمضمونها وليكون محتواها صورة حية تتمثل في العبادة والعمل والجهاد وبناء ذلك على العقيدة.. وعندها تتحقق سنة الله التي عملت عملها في بدر وعين جالوت وغيرهما من معارك الإسلام.

ومن ذا الذي يزغم لنفسه أن رحلة الإسلام على أرض الصراع يحدها زمن قصير!! إنها رحلة طويلة الأمد ـ فيما يبدو ـ وربما ازدادت شراسة الباطل يوماً بعد يوم.. ولكن الشرف الذي لا ينال الآباء قد ينال الأولاد والأحفاد.. والأهم في الموضوع، أن يؤدي جيلنا الأمانة كما ينبغي، وأن يستنفد الجهد والوقت بصدق ووعي كما ينبغي، وأن يعمل على أن تكون الخطوة الجادة أمينة على الطريق.. كيما نسلم الراية إلى من بعدنا وقد وضحت الرؤية واستبانت المعالم.. وعندها يتابع الجيل القادم طريق من سبقه على هدي المنهج الرباني الذي سلكه رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه، واسْتن به كل أولئك الذين أكرمهم الله ـ عبر التاريخ ـ وشرفهم بالعمل لما فيه خير الإسلام والمسلمين، وإزاحة الركام من طريق ركب أهل الإيمان الذين عاهدوا الله فكان عطاؤهم عنوان صدقهم فيما عاهدوا الله عليه.

إن كل واحدة من مقدمات معركة الفرقان في الإعداد والابتلاء والتمحيص بعد الإيمان الصادق، وتطويع السلوك للعقيدة.. تقتضينا النفاذ إلى حقيقة ما يمكن أن يعوق الجيل عن الارتفاع إلى مستوى معركة الصراع بين الحق والباطل.. وأن نقوِّم القول والعمل والمنهج من خلال هذه الحقيقة، لأن الجناية كل الجناية هي في أن يكبّل الجيل عن اللحاق بالركب، أو أن يصرف في فكره وقناعاته وسلوكه عن النهج القرآني، الذي أسلم أهل بدر إلى حيث تألق نجمهم في التاريخ فكانوا أسوة العاملين والمجاهدين حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وحازوا كرامة قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ

[**لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**] . لما أنهم خاضوا معركة الفرقان ، فكانوا قدراً من قدر الله في الفرقان بين الحق والباطل ، لا على أرض بدر وحدها ، بل على كل أرض وعلى مدى الزمن في تاريخ الإنسان . وعبّدوا بصبرهم ودمائهم وجراحاتهم لمن جاء من بعدهم الطريق .

إن صياماً دائماً عن الباطل بكل صنوفه وألوانه ، وإمساكاً عن الاغترار بزخرف القول وبهرج التضليل ، واستمساكاً بأخلاق الرجال عند الخوف ونذارات الأخطار ، في حرص على أن تأخذ كلماتنا الإسلامية ومصطلحاتنا مضموناتها ولا تظل فارغة من محتواها . . كل أولئك من الضرورات الملحة لهذه الأمة والعاملين فيها . . وإن كل يوم من أيام رمضان ، أمانة تذكر القرآن والجهاد . وتذكر الصبر وإخلاص العبودية لله تعالى ، وتكشف زيف من يزينون للأمة طريق الشياطين ، ويسلكوا بها متاهات الضعف ، ويعملوا على فصم العرى بين أبنائها ، وبين المقومات التي كان بها أهل بدر رجال معركة الفرقان .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الأمة مدعوة أن تعيش شهر رمضان ، عبادةً ، وتدبراً للقرآن ، وتبصراً بكل ما هو إعداد للقلب النقي ، والساعد الفتي ، والعقل المشرق ، والطاقة التي تفي بعهد الله والقرآن !

والعبودية الصادقة لله تبارك وتعالى تفعل كثيراً ، وحق لها أن تثمر في القلوب والعقول وسلوك الإنسان كثيراً كثيراً .

والخضوع بين يدي الله عز وجل جدير بأن يذكر معه المؤمن أن الذلة لغير الله تتناقض تناقضاً صريحاً مع الخضوع لله.

ولقد نكون عاجزين أشد العجز عن أداء حق الله في حمده وشكره على أن جعل شهر القرآن والصبر والجهاد، والعبادة والتبتل، شهراً انتظم العديد من معاركنا بين الحق والباطل.. وأنْ أكرم هذه الأمة وأعزها بذلك.. وغير لائق أن ننسى الوجه الآخر للقضية، الوجه الذي يمثله ثقل الأمانة، وأن لا عذر لمعتذر في أن يبذل الجهد، ويعتبر بالحوادث، ويخلص من القرآن إلى أخلاق أهل القرآن، ومن حديث الجهاد، إلى صبر أهل الجهاد وعطاء المجاهدين، ومن صيام النهار وقيام الليل، إلى ترسم سيرة أولئك الذين كانوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار، ومن الإمساك عن المفطرات الحلال، إلى خلائق البررة الذين كانوا يقلون عند الطمع ويكثرون عند الفزع.

إن الذين خوطبوا بقول الله تعالى: ﴿**انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ هم المؤمنون. والذين نبهوا إلى أن العدول عن الجهاد بكل ألوانه: إخلاد إلى الأرض، ورضىً بالحياة الدنيا من الآخرة، ولا ينبغي أن يكون ذلك من شأن المؤمنين الذين عنوان وجودهم «لا إله إلا الله» كانوا من المؤمنين. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾. وفي ذلك عبرة أي عبرة، وقاعدة للعمل أي قاعدة.

والله المأمول لا غيره، أن يهيئ لهذه الأمة من أمرها رشداً، وأن يهديها سواء السبيل، كي تتجاوز العقبات، وتعمل جاهدة صابرة على أن تأخذ صياغة مسلم اليوم صياغة هي على النصيب الأوفر من صياغة مسلم الأمس، أن يكون في حسبانها أن الأمور لا تلد بمعجزة بين عشية وضحاها، وأن لابد من صدق العقيدة وسلامة المنهج، واستذكار سنن الله، والصبر على لأواء الطريق.

صحيح أن المسلمين الأولين كان بين ظهرانيهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانوا يعيشون متنزل الوحي، ولكننا نحن اليوم أيضًا نروح ونغدو والقرآن بين ظهرانينا، وسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يضع منها شاردة ولا واردة، وسيرته العطرة نقلها إلينا العلماء النقل الموضوعي الأمين. . والتاريخ حافل بالأمثلة والشواهد. والأجر كبير وكبير؛ لأنهم كانوا يجدون على الحق أعواناً، ولا نجد؛ فما بالك إذا ضم إلى ذلك ثقل التجربة وما تنطق به الوقائع في القديم والحديث.

نقول هذا في غير غفلة عن المعوقات ونَفَثات الطواغيت، ولا بلَهٍ في النظرة إلى واقع الأمة، ولكَم يكون حظ المؤمن وافراً إذا أعطى رمضان ما هو جدير به من صيام المتقين بالجوارح، مع الإمساك عن المفطر، ومن تلاوة القرآن مع التدبر، ومن قيام خاشع يحمل كل معاني العبودية لله. . ثم خلص بعد ذلك كله إلى أن يستشعر أمانة الله في رمضان، بأن يسهم في أن يكون شهر رمضان بما يحمل من ذكريات الجهاد والمجاهدين والمعارك الظافرة على طريق الإسلام. . أن يكون رمضان نقطة تحول تحمل على المشاركة في بناء المسلم المجاهد مجدداً.

كما تنتقل بنا النقلة المنشودة، حيث تتحول الأمة من أن يكون الإسلام في حياتها كلمات ترددها الأفواه، أو لعقات على لسان بعض المتحدثين في المناسبات من أهل الرسوم، حين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، إلى أن يكون حياة ووجوداً في العالمين.

ألا إن باباً عريضًا من أبواب التفاؤل بنصر الله، تفتحه أمامنا الآيات والعظات والوقائع، ومن يدري من أي نقطة يبدأ التحول، ﴿**فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا**﴾. فلعل دمعة خاشعة في ضراعة ضارعة من قلب حاضر، حسن الصلة بالله عز وجل تعمل عملها في ليلة القدر وبإذن ربنا تبارك وتعالى فيؤتي المسلمين من لدنه رحمة ويهيئ لهم من أمرهم رشداً، ويتحول الشراع، وتتجه الأمة إلى حيث تكون جديرة بنصر الله تعالى وعونه، فإن الهدايا الغالية لا تكون للمتبطلين والعابثين.

وحاشا لعدل الله وحكمته أن يعطي النصر من هم عن دينه معرضون، وفي ظلمات الظلم والغفلة سادرون، حاشا لعدله وحكمته ـ وهو الحكيم الخبير ـ أن يقلب الآية فيكتب الخير على يد أعوان الضلالة ومفاتيح الشر. . إن الحكمة الإلهية تقتضي ـ وتلك أيضًا سنة من سنن الله ماضية ـ أن الله ـ جلت قدرته وتعالت حكمته ـ يضع الأمور مواضعها ويعطي عطاءه من كانوا أحق به وأهله، وإذا تحوّل الذهن ـ لا سمح الذهن ـ أي متحوّل في هذا الباب، كان ذلك من العبث وسوء الأدب مع الله ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

فليتق الله امرؤ في نفسه ودينه وأمته، قياماً بحق الله في القول والعمل، واعتباراً بما مضى من سنة الله فيما كان، وقدرته الغلاّبة فيما يكون، كيما يكون شهر الصوم شهر هذه الأمة في حاضرها الذي لا تغبط عليه، كما كان في ماضيها العتيد. وإلا حق علينا قوله جل شأنه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.

اللهم انصر أولياءك (*)

لقد حفل هذا القرن فيما قبل النصف الأخير منه بالكثير الطيب من وسائل البناء الفكري وسلامة التصور الإسلامي، وبالمحاولة الجادة التي آتت أكلها بنسبة كبيرة في تحميل أمانة الإسلام والتربية عليه. وبصرف النظر عن كل المعوقات التي لا تخفى على من كانت له أدنى معاناة على الساحة العامة للعمل الإسلامي، فإن الذي نعانيه اليوم إنما هو أمر النقلة من التصور إلى التطبيق والتنفيذ، فتلك التي حولها ندندن.. الأمر الذي يعوقه فتور المسلمين عموماً، وتثاؤب الطغاة الجزارين من جهة، وإصرار أعداء الله - وهم يملكون عناصر القوة في الأرض - على الحيلولة دون أن يعود الإسلام في الناس سيرته الأولى من جهة أخرى. وأعداء الله - بشتى ألوانهم - في هذا الإصرار نذير خطر ينتسب إلى أيامنا الأولى عندما كانت رايات «لا إله إلا الله» ترفرف على كثير من بقاع العالم.

ذلك لأن وقوع النقلة من سلامة التصور إلى التطبيق الذي يثمر سلامة الانتماء إلى الأمة، والولاء لقيمها، وما به كانت خير أمة أخرجت للناس.. ينعكس على وجود المسلمين بمختلف صوره، ويجعل منهم كياناً جديداً في نسغ جديد، غير الذي ألفه الأعداء منا، بدءاً من حملة بونابرت ومروراً بما أسموه الرجل المريض، ثم القضاء على الخلافة وطرح الفكر

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد السابع، السنة التاسعة عشرة، رمضان ١٣٩٨هـ، أيلول ١٩٧٨م.

المعادي لوجودها، وانتهاء بواقع التمزق في الأرض والفكر. والمسلسل الحاقد المزود بالعلم الحديث لا ينتهي.

على أية حال: أولئك قوم لهم عذرهم من وجهة نظرهم؛ فرحى الحرب دائرة، ولم تعرف الدنيا حرباً لا تنتهي آثارها كالذي رأت بين الصليبية واليهودية والوثنية والدعوات الضالَّة وبين هذه الأمة، علماً بأن حروباً كثيرة وقعت ثم وضعت أوزارها. ولم تحمل هذه الاستمرارية كالذي نجده فيما بيننا وبين أولئك الأقوام، مع أننا حملنا إليهم رسالة الخير، وأضأنا لهم دروب المعرفة عندما كانت حالهم ظلمات بعضها فوق بعض، ولم نبدأهم بأذى ولا دبرنا لهم مكيدة، بل كانوا دائمًا هم البادئين المفترين. والبادئ بالشر أظلم. ولئن كان الأمر كذلك بالنسبة إليهم: إن جدية الأمر تقتضينا أن نتساءل: ما عذرنا نحن في أن نكون أداة مسخرة لهم عن عمد أو جهل أو غفلة، فيبطش الظالم، ويقود الأحمق، ويستعلن الجهول!!

إن البرهان على أننا لسنا كذلك أو أننا على صعيد أقرب إلى الأصالة على الأقل، أن نستأنف الطريق من جديد بوعي وبصيرة وتخطيط، وألا نورِد على صعيد البناء والتثقيف من ولانا الله أمرهم: موارد الهلكة، في أسوأ مكمن من مكامن الخطر.

وهنا يأتي دور الريادة بجدية إعداد المسلم القادر على مواجهة هذه المرحلة التي تأتي في آخر هذا القرن بعد أحداث جسام من مستهله، حتى الحقبة التي تسلمه إلى نهايته. وبمقدار الإحاطة الواعية للمراحل التي سبقت هذه

المرحلة وما كان من تأثير كل واحدة في التي تلتها، نكون أقرب إلى السلامة في أمر الإعداد المنشود، من حيث الغاية المتوخاة، والسبيل المسلوكة إليها، وما يتطلبه ذلك من جهاد على مختلف الأصعدة.

ولقد ذللت كثير من العقبات في ميدان الفكر والتصور - كما أسلفت - ولكن المهمة الصعبة الآن تكمن في الإعداد الذي نلمح إليه، علماً بأن جزءاً أصيلاً هو جوهر القضية، أن يوضع في الحسبان أمر التمحيص والابتلاء، لأن أعداء الإسلام لا يدفعهم إلى مناصبة العداء جهل بقيم الإسلام، أو قدرته على النفاذ، وإنما هي حلقة في الصراع بين الحق والباطل حيثما يزال الاستفهام التعجبي الإنكاري ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ قائماً يشير إلى طبيعة المشكلة بين أهل الحق وأهل الباطل. . وما نراه الخير في الإسلام يرونه مكمن الخطر في الصراع. ولو أن الإسلام مجموعة ألغاز وتهويمات. . إذاً لهان الأمر عندهم وعند سدنتهم. . ولكنه دعوة الحياة بجوهر رسالته وتاريخه. ومقوماته الحضارية، وثقافته التي أغنت الوجودَ الإنساني بمختلف صوره خلال قرون وقرون وما تزال.

لذا كانت المشكلة عندهم هي في المسلم بوصفه مسلماً قبل أن يحسن أو يسيء، فهو مسيء بانتمائه إلى الإسلام!!

ومن أجل ذلك ينبغي ألا تشغلنا في أنفسنا ولا في إعداد المسلم اليوم، من أجل تحقيق النقلة من التصور إلى التطبيق على صعيد الفرد والجماعة، تلك القضايا التي تطرح كل يوم: هل يصلح التشريع الإسلامي لهذا؟ هل

هذا الإسلام قادر على مسايرة الحياة وتلبية حاجات التطور؟ إلخ. إن مثل هذه القضايا المطروحة يمكن أن تعالج على صعيد البحث العلمي بحدوده المنضبطة وأبعاده الموضوعية.. وهذا أمر طبيعي، وإذا وجد الإنصاف فليس لدينا والحمد لله دعوى بلا دليل. أما على صعيد العمل والريادة والإعداد: فتلك قضايا لم نجن منها إلا البلبلة، ونذر الضياع في كثير من الأحيان.. ولقد كتب الكاتبون، وألف المؤلفون، وتحدث المتحدثون بالقدر الذي فيه مقنع لمن أراد مقنعاً.. ولكننا نرى بعد ذلك كله أن الشنشنة تعود سيرتها مجدداً.. وإذاً فجوهر القضية أن نسلم هذا المسلم إلى ميدان العمل على بصيرة، وأن نحول دونه ودون أن يلعب طرح تلك القضايا من صلاحية، أو عدم صلاحية، من اختلاف أو اتفاق، وأمثال ذلك.. دور الامتصاص لطاقاته ووضعه في دوامة مضنية، فلا هو مطمئن إلى ما هو فيه، ولا هو قادر على أن يكون صاحب رسالة يعمل لها بعزيمة وإخلاص، ويعمل أعداء الأمة على حصارها في الأرض والفكر وجميع شؤون الحياة، ويستخدمون كل سلاح لقطع دابرها من دنيا التاريخ، ونحن نبدئ ونعيد على طريق الشك والاحتمالات كالرحى تدور على نفسها دون حبة تطحنها حتى يأكل بعضها بعضاً.. وأكثر ذلك مايزال في اللاشعور نتاج تلك الحملات المسعورة من المستشرقين وأوليائهم فينا، حين كنا نرى أن كلامهم هو الكلام، وأن حكمهم هو الحكم، وأن إسلامنا كله لابد أن يقاس بمقاييسهم، وأن يحكم عليه من خلال نظراتهم وآرائهم.

إذا قالت حزام فصدقوها فإن القول ما قالت حزام

وخلافًا لكل مفهوم في الدنيا: تؤخذ شهادة الخصم حكمًا على ما يخاصم ويحارب!!

لقد انتهت هذه المرحلة - والحمد لله أوتكاد - في نفوس من أكرمهم الله بالارتباط بمنابع الإسلام الأولى، وتكونت شخصيتهم في المعرفة والثقافة عمومًا، على أن الإسلام هو الإسلام، كما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - وإن من الحطة والجهالة بمكان، أن يُسف مسلم فيكون المدح أو القدح في هذا المضمار منوطاً بأعداء هذا الدين، وأكثرهم جاهلون حاقدون!.. ولكن مايزال فينا - من ذوي الكلمة المسموعة في هذا الزمن - من تربّت أفكارهم في محاضنَ غير محاضننا، أو كانوا ممن يستمرئون القعود عن العمل ويخترعون لقعودهم وإدبارهم عناوين يسمونها البحث والموضوعية والتجرد.. وما إلى ذلك من ألفاظ سئمها الحبر والورق لكثرة ما استخدمت في غير موطنها زوراً وبهتاناً وسفهاً بغير علم، بل خضوعاً للشهوة والهوى بعض الأحيان.

إننا ندعو ونلح في الدعوة، إلى أن يكون في حسباننا دائماً عند إعداد المسلم - فيما نحن قادرون عليه - إحكام الصلة بينه وبين منابع الإسلام الأولى، في عقله وقلبه ومشاعره، وأنه محارب لكونه يقول لا إله إلا الله وينتمي إلى أمة حملت عبء عقيدة التوحيد والحفاظ على إنسانية الإنسان ردحاً من الزمن، وأنه صاحب رسالة لها ما لها من تبعات، وأن العاقبة عند الله كبيرة، وعلى ذلك فلا بد أن يُعدَّ نفسه - مع التكوين - للتمحيص

والابتلاء ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾. ومن الابتلاء صرف الأجيال عن رسالته والسلوك بها مسلك الجاهلية وجفوة الإسلام.

كل هذا وأن تكون هذه القيم في فكره وروحه وذوقه، فهو المفكر سليم التفكير، وهو العابد الخاشع بين يدي مولاه. وتراه يوالي في الله ويعادي في الله، وهو المؤمن بالغيب كما جاء في القرآن والحديث الصحيح، حتى كأن الغيب من عالم الشهود.. وفي الوقت نفسه ليس بعيداً عن الحياة ومواجهة الواقع، ونشدان الحق كائناً من كان القائل به من عدو أو صديق، فالحق أحق أن يتَّبع!

وإذا سلم لنا المنهج على هذه الطريق، وصحا الغافل، وانحسر الأذى، فلا تسل عن الخير الذي يعود على هذه الأمة وعلى الإنسانية جمعاء.

ترى لو أن للإسلام وجوداً حقيقياً في أرضنا، وفي تلك البقاع المظلومة الهضيمة في أفريقيا وآسيا وغيرهما، هل تكون الأمور على هذه الشاكلة؟!

لا والذي جعل الجهاد صنو الإيمان والعمل في الإسلام.. فحين تشرق شمس الإسلام على دنيانا ودنيا الناس من جديد، يعود الدفء وتعود الحياة.

وحين يصل المسلم إلى درجة اليقين بهذه المعاني: يسير في الحياة على بصيرة من أمره، لا تثنيه الزعازع، ولا يشغله عن الغاية التشكيك. ومن هذا المنظور لا يكون الأمر عنده منوطاً فقط بإقناع الأبعدين بصلاحية هذا الإسلام، واستجداء رضاهم، ولكنه منوط بأن يكون هو مع الرسالة على

طريق التغيير والتعاون المجدي، من أجل استئناف حياة إسلامية متكاملة، يحكمها الإسلام في عقيدته وشريعته وقيمه.

وهذا لا يعني - كما أسلفت - إغماض العين عن ضرورة عرض الإسلام عرضاً صحيحاً بأدلته على النهج العلمي وتبيان فضائله وعناصر الحياة فيه، وكونه مؤهلاً - كما شاء الله له أن يكون - ليحكم الحياة بكل شؤونها متخطياً أبعاد الزمان والمكان، ويقود إلى سعادة الدنيا والآخرة.

تلك قضية أخرى، ووجوب التعليم والتعلم في الإسلام: أمر لا يهون من شأنه إلا جاهل أو متجاهل لبدهيات هذا الدين.. ولكن قضية النقلة التي أشرت إليها في صدر هذا الحديث بكل ما تتطلبه من تبعات ومسؤوليات، ووعي لحاضر الأمة وماضيها، وتحسس بطبيعة المرحلة التي يعيشها المسلم وما لها من سلبيات وإيجابيات.. كل أولئك يوجب - لا محالة - أن تؤخذ القضية مأخذ الجد وحشد الأسباب مع الاستعانة بالله عز وجل، دون تهاون أو تسويف.. وما أكثر ما يحدث التهاون والتسويف من مشكلات!!

فمن أجل أن نسلم الراية إلى الجيل القادم بأمانة.. ومن أجل أن تذكر أمتنا في الأولين والآخرين - وهي خير أمة أخرجت للناس - وأن تظل جديرة بالشهادة على الناس، ومن أجل ألاّ تكون سخرية التاريخ، ومضرب المثل في استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ومن أجل أن يعود إلينا ما اغتصب من وجودنا، ومن أرضنا، ونعود إلى قيادة الدنيا من جديد، من أجل أن نكون

في مرضاة الله ولو غضب كل أقزام الأرض؛ كان لزاماً أن ننفض غبار الدعة في حمل الأمانة، ونعي واقعنا بشمول وعمق، ونعزم العزمة التي تزين أخلاق الرجال. إننا إن فعلنا ذلك. كان الله معنا ولن يَترَنا أعمالنا.

والله الذي أراد لعباده الخير برسالة الإسلام، ويعلم ما تجنيه أيدي الطواغيت وتوجهات من لهم زمام الأمر في العالم، ومن يسخرون العلم لهدم الإنسان وحضارته وإبعاده عن منهج الله الذي ارتضاه لخلقه.. قادر على نصر عباده المؤمنين، وبيده الأمر كله، وعلى عينه تصنع الغلبة لجنده الصادقين..

اللهم انصر أولياءك وأحباءك.. وأهلك أعداءهم وأعداءك، إنك نعم المولى ونعم النصير، أنت المستعان وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.